الفصل الثالث

المدرسة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفتح – الآية ٢٩]

(١)

لما انتهى بناء المسجد، هفت أفئدة المسلمين إليه، وزاد من تعلقهم به وجود رسول الله ﷺ فيه دائما، فتكاد تكون حياته كلها قائمة بالمسجد، فهو لا يغادره إلا للنوم، أو لقضاء حاجة.

توافدت جموع المسلمين على مسجد رسول الله، من يقيم منهم بالمدينة، ومن يفد من البادية، وانتظمت في مداومة ترددها عليه، لأداء الصلاة، أو للجلوس بين يدى نبى الله، وكان ﷺ يقول ممتدحا عملهم:

– ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده.

يقول الله عز وجل، فى حديث قدسى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ، ذكرته فى ملأ خير منه، وإن اقترب إلى شبرا، اقتربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلى ذراعا، اقتربت منه باعا، وإن أتانى مشيا أتيته هرولة.

ويرتل رسول الله ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى قوله:

– ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة التوبة – الآية ١٨].

ويقول رسول الله ﷺ:

– من بنى مسجدا ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتا فى الجنة.

وقال رسول الله ﷺ:

لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هـذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس.

– صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام.

– ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى.

قال رسول الله ﷺ يعلمهم، وقد وجد أحدهم قد تفل فلصقت بصقته بقبلة المسجد:

– إن أحدكم إذا قام فى الصلاة فإنما يناجى ربه، فلا يبصقن أحدكم قبل قبلته.

ثم مسح رسول الله ﷺ البصقة بطرف بردته.

وفد أعرابى من البادية، ليسأل رسول الله ﷺ فى بعض أمور دينه، فلما ولج إلى المسجد انفرد بركن منه، وبال على أرضه، وحين هم بعض الصحابة بزجره، أسكتهم الحبيب ﷺ قائلا فى رحمة:

– لا تروعوه.

ولما انتهى الأعرابى من قضاء حاجته، أقبل على رسول الله ﷺ، فلم يزجره، ولم يعلن الحرب على عشيرته، ولا أمر بهدم مضاربهم، كما فعل «أبرهة الأشرم»، فى الماضى البعيد، لما أحدث أعرابى فى كنيسته، فقدم على مكة يريد أن يهدم الكعبة؛ بل هش فى وجهه، وقال لمن حوله:

– إنما جعلت المساجد للطهر وللصلاة.

ثم أمر بوعاء به ماء، وصار ينثره على بول الأعرابى.

(٢)

كان المسلمون يجتمعون للصلاة فى المسجد بغير دعوة، فلم يكن الآذان قد عرف بعد، مما كان يجعل بعض المسلمين يفدون للمسجد بعد انتهاء صلاة الجماعة، فكان رسول الله ﷺ يأسى على الذين فاتهم ثوابها، فصلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وهو ما كان يجعل رسول الله ﷺ يطلب من بعض أصحابه إعادة الصلاة مع من وفد متأخرا، قائلا:

– من يأخذ ثواب أخيه؟.

ولقد شغل ذهن رسول الله ﷺ بالبحث عن سبيل لتنبيه المسلمين إلى مواقيت الصلاة، وحين أخبر أصحابه بأنه يريد أن يعلن بالصلاة، قال البعض:

– لنعلن عن موعدها بالبوق.

ولم يعجب رسول الله ﷺ، وقال:

– هو من أمر اليهود.

قال البعض الثانى:

– لنعلنها بالناقوس.

ولم يعجب رسول الله ﷺ، وقال:

– هو من أمر النصارى.

قال البعض الثالث:

– لو رفعنا نارا.

ولم يعجب رسول الله ﷺ، وقال:

– ذلك للمجوس.

وانفض المجلس دون الوصول إلى رأى، ولحظ «عبد الله بن زيد» ونفر من الأنصار، انشغال رسول الله ﷺ بهذا الأمر، فعز عليه أن يكون الحبيب محمد ﷺ على مثل هذا الحال، ونام ليلته وهو مهموم؛ فأتاه آت فقال له:

– إيت رسول الله ﷺ، فمره أن يقول: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

ثم جلس القائل قليلا، ونهض يقول: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

قام عبد الله من نومه منشرح الصدر، فلقد ذهب عنه الهم، وأسرع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بما رأى، فقال الحبيب ﷺ لعبد الله:

– إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، فقم إلى بلال فألق عليه ما رأيت، ليؤذن به فإنه ندى الصوت.

وكان جبريل عليه السلام قد جاء نبى الله ﷺ، فى ذات الليلة بمثل ذلك، فلما صعد بلال إلى حائط المسجد ونادى للصلاة، كان رسول الله ﷺ، يقول مثل ما يقول بلال، عدا: حى على الصلاة، حى على الفلاح، فكان رسول الله يقول:

– لا حول ولا قوة إلا الله.

فإذا ما انتهى الأذان، قال:

– اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، صل على محمد وأعطه سؤله يوم القيامة.

وعند أذان الإقامة، كان رسول الله ﷺ يقول مثلما يفعل عند الأذان، وعندما يقول المؤذن: قد قامت الصلاة، يقول:

– أقامها الله وأدامها.

وحين تجمع المسلمون للصلاة، إذا بعمر بن الخطاب يقبل مهرولا، ويقول لرسول الله ﷺ:

– والذى بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت فى نومى مثل الذى أرى.

فقال رسول الله ﷺ:

– فلله الحمد فذلك ثبت.

(٣)

كان رسول الله ﷺ يؤم المصلين، وهو يعلم تمام العلم مدى التصاق عيونهم بحركاته وسكناته

ليتأسوا به، وتلهف آذانهم لالتقاف كلماته ليتعلموا منها ويعلموا، فهو النبى المقتدى.

كان يُعلمهم كل شىء، بدءا بإظهار وضوئه خارج المسجد، فيؤتى له بالإناء، فيسمى اسم الله، ثم يصب على يديه فيغسلهما ثلاثا، ثم يحسو بكفيه من الإناء فيتمضمض ثلاثا، ثم يستنشق ثلاثا، ويغسل وجهه ثلاثا، ويغسل ذراعه اليمنى فاليسرى ثلاثا حتى المرفقين، ثم يمسح على رأسه ثلاثا، ويمسح بأذنيه، ثم يغسل رجليه ثلاثا بادئا باليمنى ثم اليسرى.

ويقول أثناء وضوئه:

– اللهم اغفر لى ذنبى، ووسع لى فى رزقى.

وكان ﷺ يقول عن ماء الوضوء:

– الماء لا ينجسه شىء، إلا ما غلب على: طعمه وريحه ولونه.

وإذا لم يكن هناك ماء تيمم، فضرب الأرض بكفيه ومسح على وجهه، ثم ضربها ومسح على يديه، ويكرر ذلك كل صلاة إذا لم يتوافر الماء.

وحين يتجه ﷺ إلى المسجد، يقول وهو يدخله:

– اللهم صل على محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك.

فإذا اجتمع المسلمون للصلاة، دعاهم لأن يسووا صفوفهم، ويصفهم بيديه، أو بإشاراته، قائلا:

– استووا، أقيموا صفوفكم وتراصوا، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم.

فإذا ما اطمأن إلى تراص الصفوف، اتجه إلى القبلة رافعا ذراعيه مكبرا، ثم وضع يديه على صدره، اليمنى فوق اليسرى، واستغرق فى ذكر الله، وراح يناجى ربه فى سره قائلا:

– وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك الحق لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أنت ربى وأنا عبدك، لا شريك لك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق، وأحسن الأعمال، لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها، وقنى سىء الأعمال وسىء الأخلاق، لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك، الهدى من هديت، فأنا بك وإليك، لا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك.

وكان من عادة رسول الله ﷺ، إذا ما انتهت صلاة الفجر، أن يبقى فى مجلسه يذكر الله، ثم يستدير إلى جموع الحاضرين يدعو قائلا:

– اللهم إنى أعوذ بك من كل عمل يخزينى، وأعوذ بك من كل غنى يطغينى، وأعوذ بك من كل صاحب يردينى، وأعوذ بك من كل أمل يلهينى، وأعوذ بك من فقر ينسينى.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ:

– اللهم إنى أسألك رزقا طيبا، وعلما نافعا، وعملا متقبلا.

ويرفع صوته ليسمع أصحابه دعاءه، مكررا كل دعاء ثلاث مرات:

– اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى.

اللهم أصلح لى آخرتى التى هو إليها مرجعى.

اللهم أصلح لى دنياى التى فيها معاشى.

اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك.

اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

وكان رسول الله ﷺ يقول:

– لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة الفجر إلى أن تطلع الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربعة من بنى إسماعيل، دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربعة من بنى إسماعيل، دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا.

جلس رسول الله ﷺ إلى من بالمسجد يوما، فقال:

– أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون أيبقى ذلك من درنه شيئا؟.

قال الحاضرون:

– لا يبقى ذلك من درنه شيئا.

قال رسول الله ﷺ:

– فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله تعالى بها الخطايا.

فإذا ما انقضت الصلاة، وختم الدعاء، وأراد رسول الله ﷺ أن يخرج من المسجد قال:

– اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب فضلك.

جاء رجل إلى المسجد، وكان رسول الله ﷺ يجلس، ومعه صحابته، وقال:

– يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقمه على.

فتشاغل عنه رسول الله ﷺ، فأعاد الرجل مقولته، فسكت عنه رسول الله ﷺ، وأذن لإقامة الصلاة، وقام الحاضرون إلى صلاتهم، فلما انقضت، انصرف رسول الله ﷺ، فتبعه الرجل، وأعاد عليه ما قاله من قبل، فقال له الحبيب:

– أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟.

قال الرجل:

– بلى يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

– ثم شهدت الصلاة معنا؟.

قال الرجل:

– نعم يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

– فإن الله تعالى قد غفر لك ذنبك.

ألا ما أرحمك يا حبيبى.

وما أعظم صبرك.

وما أشرح صدرك.

ذات يوم، جاء إلى رسول الله ﷺ رجل، فقال:

– يا رسول الله، لقد ربحت اليوم ربحا ما ربحه أحد من أهل هذا الوادى.

فسأله رسول الله ﷺ:

– ويحك، وما ربحت؟.

قال الرجل:

– ما زلت أبيع وأبتاع، حتى ربحت ثلاثمائة أوقية.

فقال له رسول الله ﷺ:

– أفلا أنبئك بخير وأربح؟.

قال الرجل:

– ما هو يا رسول الله؟.

قال رسول الله ﷺ:

– ركعتين بعد الصلاة.

سئل رسول الله ﷺ:

– أى الأعمال أفضل؟.

قال ﷺ:

– الصلاة على وقتها.

قال رسول الله ﷺ ناصحا بعض ضيوفه:

– عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد سجدة لله تعالى، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.

قال رسول الله ﷺ:

– مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع.

– من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك.

obeikandl.com

– بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة.

(٤)

كان من يفدون على مسجد رسول الله ﷺ، يحبون أن يسألوه فى أمور دينهم، زيادة فى العلم، واستزادة فى التفقه، ولما سألوه عن الصوم، قال رسول الله ﷺ:

– كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم، فإنه لى، وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى.

– للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وقال:

– الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله، فليقل: إنى صائم، إنى صائم.

– من صام يوما فى سبيل الله تعالى، جعل الله بينه وبين النار خندقا كما بين السماء والأرض.

– إن فى الجنة بابا يقال له باب الريان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد.

– إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وسلسلت الشياطين، وينادى مناد كل ليلة: يا باغى الخير أقبل، ويا باغى الشر أقصر.

ولما سألوا رسول الله ﷺ عن الحج والعمرة، قال:

– جهاد الصغير والكبير، والضعيف والمرأة: الحج والعمرة.

قال أبو هريرة رضى الله عنه:

خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال:

– يا أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا.

فسأله رجل:

– أفى كل عام يا رسول الله؟.

فسكت رسول الله، حتى قالها الرجل ثلاث مرات، ثم قال:

– ذرونى ما تركتكم، لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم، إنما أهلك من قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإن أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شىء فاجتنبوه.

(٥)

كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه، ويحبب إليهم التعلم، فكان ينقل إليهم بعض ما يحمله إليه

جبريل عليه السلام من علم، ولا يفصح به كله، فهو ينبئهم بما تطيقه أفئدتهم، لأنه لا ينسى كيف ارتعدت الأفئدة، واهتز اليقين، حين سمع المسلمون الأول بأمر إسرائه ومعراجه، فما بالكم لو قال بما يوحى إليه من السماء من أمور الغيب، إذن لاختلت العقول؟.

قال رسول الله ﷺ :

– من سلك طريقا يطلب به علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وأن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

ويحض رسول الله ﷺ على التعلم، فيقول:

– من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين.

– من خرج فى طلب العلم، فهو فى سبيل الله حتى يرجع.

– من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار.

– إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

ولقد شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ذات يوم وهو فى مجلسه، وكثيرا ما كان يفعل، ثم قال:

– هذا أوان يختلس العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شىء.

وتساءل «زياد بن لبيد الأنصارى» دهشا، قال:

– كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن، والله: لنقرأنه ولنقرِئَنَّه أولادنا ونساءنا؟.

قال رسول الله ﷺ :

– إنى كنت لأعدك يا زياد من فقهاء المدينة، هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغنى عنهم؟.

وقام «زياد» وفكره مشغول بما قاله رسول الله ﷺ، فلم يدرك معناه، فلقى «عبادة بن الصامت» رضى الله عنه فحدثه بما سمع، فقال له عبادة:

– صدق رسول الله ﷺ، فإن شئت أخبرتك ما أول علم يرفع؟: أول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع، فلا ترى فيه رجلا خاشعا.

قال رسول الله ﷺ :

– تعلموا الفرائض والقرآن، وعلموا الناس فإنى مقبوض.

ذات يوم، بينما بعض الصحابة، جلوس إلى رسول الله ﷺ بالمسجد، طلع عليهم رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منهم أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ وقد أسند ركبتيه إلى ركبتيه، وقال:

– يا محمد أخبرنى، عن الإسلام؟.

فقال رسول الله ﷺ :

– الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال الرجل:

– صدقت.

وتعجب الصحابة من أمر الرجل، يسأل رسول الله ويصدقه، ثم قال الرجل:

– فأخبرنى عن الإيمان؟.

قال رسول الله ﷺ :

– أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال الرجل:

– صدقت، فأخبرنى عن الإحسان؟.

قال رسول الله ﷺ :

– أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

قال الرجل:

– صدقت، فأخبرنى عن الساعة؟.

قال رسول الله ﷺ :

– ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال الرجل:

– فأخبرنى عن أماراتها؟.

قال رسول الله ﷺ :

– أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان.

ثم انطلق الرجل خارجا من المسجد، فلبث رسول الله ﷺ فى صمت مليا، ثم التفت إلى عمر بن الخطاب، وقال:

– يا عمر أتدرى من السائل؟.

قال عمر:

– الله ورسوله أعلم.

قال رسول الله ﷺ :

– هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

obeikandl.com

(٦)

سأل أعرابى رسول الله ﷺ بعد الصلاة، عن القضاء والقدر، فقال:

– قال موسى: يا رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة. فأراه الله أباه آدم عليه السلام. فقال: أنت أبونا آدم ؟. قال: نعم. فقال: أنت الذى نفخ الله فيك من روحه، وعلمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة فسجدوا لك؟. قال: نعم. فقال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟. قال آدم: ومن أنت؟. فقال: أنا موسى. قال: أنت الذى اصطفاك الله برسالاته، أنت نبى بنى إسرائيل الذى كلمك الله من وراء الحجاب، ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ؟. فقال: نعم. قال: فما وجدت ذلك فى كتاب الله قبل أن أخلق ؟. فقال: بلى. قال: ففيم تلومنى، فى شىء سبق من الله فيه القضاء قبلى؟!.

قال رسول الله ﷺ:

– فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى عليهما السلام.

وكان رسول الله ﷺ يقول لصحابته ناصحا:

– لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر، خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه، لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

– من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله تعالى.

– المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء، فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

– إن خلق أحدكم: يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ؛ فوالذى لا إله إلا غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

– لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر؛ فمن مات منهم فلا تمشوا فى جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال.

جاءه «سراقة بن مالك بن جثعم» رضى الله عنه، فقال:

– يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن: فيم العمل الآن؟.. أهو فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟.

قال رسول الله ﷺ:

– لا. بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير.

قال سراقة:

– ففيم العمل؟.

قال رسول الله ﷺ:

– اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، وكل عامل بعمله.

٧

فى مسجد نبى الله ﷺ، وفى السنة التاسعة للهجرة فرضت الزكاة ونزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة التوبة – الآية ١٠٣]. وجاء فرضها تأكيدا على روح المؤاخاة بينهم، وعلى التكافل، وأمر رسول الله ﷺ أن يأخذها من المقتدرين منهم، ويعطيها لفقرائهم، وبهذا اكتملت أركان الإسلام الخمسة:

«الشهادة والصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت».

وذات يوم، جلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فقال:

– أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن: لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.

جاءه رجل، وقال له:

– يا رسول الله، عندى دينار.

قال رسول الله ﷺ:

– تصدق به على نفسك.

قال الرجل:

– عندى آخر.

قال رسول الله ﷺ:

– تصدق به على ولدك.

قال الرجل:

– عندى آخر.

قال رسول الله ﷺ:

– تصدق به على زوجك.

قال الرجل:

– عندى آخر.

قال رسول الله ﷺ :

– تصدق به على خادمك.

قال الرجل:

– عندى آخر.

قال رسول الله ﷺ :

– أنت أبصر به.

دخل المسجد رجل على هيئة توحى بالفاقة، ورسول الله ﷺ يأمر بالصدقة، فتصدق الناس، فأعطى رسول الله ﷺ للرجل ثوبين، ثم قال ﷺ :

– تصدقوا.

فأعطاه الرجل أحد الثوبين، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال:

– أترون إلى هذا الذى رأيته فى هيئة بذة فأعطيته ثوبين، ثم قلت تصدقوا، فطرح أحد ثوبيه.

ومد يده بالثوب يعيده إلى الرجل، قائلا:

– خذ ثوبك.

جاءه رجل بمثل بيضة من الذهب، فقال:

– يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة.

فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، فصار الرجل يكرر قوله، فأخذها منه رسول الله ﷺ ، ثم ردها إليه، وقال:

– يأتى أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول.

– إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، فلها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما اكتسب، وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئا.

– لا تنفق المرأة من بيت زوجها إلا بإذنه.

قيل:

– يا رسول الله ولا الطعام؟.

قال:

– ذلك أفضل أموالنا.

كمال قال:

– العائد فى صدقته، كالعائد فى قيئه.

وقال:

– ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة،

ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله تعالى لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره.

سأل رجل رسول الله ﷺ، قال:

– ما الإيمان، وما الإسلام يا نبى الله؟.

قال رسول الله ﷺ:

– الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من شعب الإيمان، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

– ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يلقى فى النار.

– من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان.

– من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من عمل.

– والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار.

– يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان.

– لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

– عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.

– من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت.

– المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.

قال رجل:

– يا رسول الله، أى الإسلام خير؟.

قال رسول الله ﷺ:

– تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف.

– إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، وكان بعد ذلك القصاص، كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يجاوز الله عنها.

– من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة.

قال رسول الله ﷺ:

– أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا أدخل الجنة.

قال أحد الصحابة:

– وإن زنا، وإن سرق؟.

قال: وإن زنا، وإن سرق.

وعنه أنه قال ﷺ:

– أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله خالصة من قلبه.

– كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

٨

كان رسول الله ﷺ يحض على مكارم الأخلاق، ويقول:

– إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

ويدعو ربه قائلا:

– اللهم كما أحسنت خلقى، حسن خُلقى.

– إن صاحب الخلق، يبلغ به يوم القيامة درجة الصائم القائم.

– اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

– من حسن الخلق ترك مالا يعنيك.

جلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال لهم:

– إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تتجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تنابذوا، وكونوا عباد الله إخوانا، كما أمركم الله تعالى: المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم؛ كل المسلم على المسلم حرام: ماله، ودمه، وعرضه؛ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وأخذ النبى ﷺ يشير إلى صدره، ويقول:

– التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا.

– ألا لا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.

– مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعت له سائر الجسد بالسهر والحمى.

– من غشنا فليس منا.

– من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا، لم يرض الله له ثوابا دون الجنة.

– أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون

حبيبك يوما ما.

– يقـــول الله تبـــارك وتعالى: وجبـت محبتى للمتحابين فى، وللمتجالســين فى، وللمتزاورين فى. وللمتباذلين فى.

– ان من عباد الله ناســا ما هم أنبياء، ولا شــهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامـة، هم قـوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حـزن الناس.. وقـرأ ﷺ هذه الآية:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة يونس – الآية ٦٢].

– المســلم أخو المســلم: لا يظلمه، ولا يسلمه؛ ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته؛ ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ؛ ومن ستر مسلما، ستره الله يوم القيامة، ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام، ومن يســر على معســر؛ يســر الله عليه فى الدنيا والآخرة ؛ والله فى عون العبد، ما كان العبد فى عون أخيه.

– من ذب عن عرض أخيه، رد الله النار عن وجهه يوم القيامة.

– ما أكرم شاب شيخا لسنه، إلا قيض له الله تعالى من يكرمه عند سنه.

– ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر.

– أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك: ارحم اليتيم، وامسح رأسه، يلن قلبك، وتدرك حاجتك.

– حق المســلم على المســلم خمس: رد الســلام، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس.

– أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العانى.

– طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع.

– لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصا، وتروح بطانا.

– ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.

– إذا نظـر أحدكـم إلى من فضل عليه فى المال والخلق، فلينظر إلى من هو أســفل منه. فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم.

– ليس الشديد بالصرعة، وإنما الذى يملك نفسه عند الغضب.

– من ضار ضار الله به، ومن شاق شق الله عليه.

– إياكـم والجلوس فى الطرقات، فإذا أبيتم إلا المجلـس فأعطوا الطريق حقه: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضال.

– إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه.

– لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم.

– إذا خرج رجل وعاد، فهو أحق بمجلسه.
– لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين، إلا بإذنهما.
– لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقى.
– المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل.
– ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟.
قالوا:
– بلى يا رسول الله.
قال رسول الله ﷺ:
– إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين.
– أحبب لأخيك ما تحب لنفسك.
– المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.
– الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وان الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وان الكذب يهدى إلى الفجور، وان الفجور يهدى إلى النار، وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا.
– دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فان الصدق طمأنينة، والكذب ريبة.
– أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك.
– من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.
– إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر.
– إنكم منصورون، ومصيبون، ومفتوح عليكم، فمن أدرك ذلك منكم، فليتق الله تعالى، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.
كان رسول الله ﷺ يوصى بوصل الأقارب، ويقول:
– الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله.
– من سره أن يبسط الله تعالى فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه.
– تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسئة فى الأثر.
– الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان.
جاء رسول الله ﷺ وهو يحدث بصلة الرحم رجل، فقال:
– يا رسول الله لى أهل أصلهم ويقطعوننى.
قال رسول الله ﷺ:
– صلهم.
قال الرجل:

– أعطيهم ويمنعوننى.

قال رسول الله ﷺ :

– لا تمنعهم وصلهم.

وكان رسول الله ﷺ يوصى المسلمين بالتراحم:

– الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء.

– لا يرحم الله من لا يرحم الناس.

– لا تنزع الرحمة إلا من شقى.

قبل رسول الله حفيده «الحسن»، وكان عنده رجل من المسلمين، فقال:

– إن لى من الولد عشرة، ما قبلت منهم أحدا.

فنظر إليه رسول الله ﷺ ، ثم قال:

– من لا يرحم لا يرحم.

قال رسول الله ﷺ :

– جعل الله تعالى الرحمة مائة جزء، فامسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

عن رسول الله ﷺ أنه قال:

– بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا، فنزل فشرب، ثم خرج، وإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له.

قالوا:

– يا رسول الله، وان لنا فى البهائم أجرا ؟.

قال رسول الله ﷺ :

– فى كل كبد رطبة أجر.

– دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض.

– إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه، وما نزع من شىء إلا شانه.

– من يحرم الرفق، يحرم الخير كله.

٩

لم يكن كلامك يا حبيبى مجرد كلام، بل هو عمل وفعل، فلقد خرج رسول الله ﷺ يوما إلى الخلاء لقضاء حاجته، فبينما هو راجع، أبصر بامرأة عجوز تحمل على رأسها حملا ثقيلا من الحطب، فاقترب منها، وقال مستأذنا:

– ألا أحمله عنك يا خالة.

قالت العجوز، وهى تنقل إليه حملها:

– نعم.

ولما استوى الحمل على كاهل رسول الله ﷺ، قالت له العجوز:

– أى بنى، ألا أسدى إليك نصيحة ؟.

قال رسول الله ﷺ:

– نعم.

قالت العجوز:

– لقد نزل بالمدينة رجل يقال له محمد، فإذا رأيته فلا تتبعه فهو ما ينصحك إلا بما يهلكك.

وسكت رسول الله ﷺ ولم يعقب، واستمر يحمل الحطب حتى أوصله إلى خيمة العجوز، فأنزله حيث طلبت منه. وشكرت له العجوز صنيعه، ثم سألته:

– ما اسم الفتى؟.

قال رسول الله ﷺ:

– محمد بن عبد الله.

قالت العجوز:

– أأنت هو من خوفونى من اتباع دينه ؛ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

(١٠)

– كان رسول الله ﷺ، إذا بعث أحدا فى بعض أمره قال:

– بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا.

كما كان رسول الله ﷺ دائم النصح لصحابته باتقاء الله فى جيرانهم، وعن أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله ﷺ، أن رسول الله قال:

– ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

وقال رسول الله ﷺ لصحابته:

– لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه.

سأله سائل:

– يا رسول الله لى جاران، فمن أهدى؟.

قال رسول الله:

– أقربهما منك بابا.

كان رسول الله ﷺ دائم الاستماع لمن يسأل، بلا ملل، ولا كلل، بسام لا يغضب إلا لله، يفيض فى

كل ما ينفع أصحابه، ويشرح للكل بينما السائل واحد، مرحبا يهش ويقول ﷺ :

– سل عما شئت.

جاءه عامرى يقول:

– أشـهد بالله الذى لا إله غيره، أن أمرك حـق، فأنبئنى بأشـياء أسـألك عنها ؛ فأخبرنى يا ابن عبد المطلب ما يزيد فى العلم ؟.

قال رسول الله ﷺ :

– التعلم.

قال العامرى:

– فأخبرنى ما يدل على العلم ؟.

قال رسول الله ﷺ :

– السؤال.

قـال:

– فأخبرنى ماذا يزيد فى الشر ؟.

قال رسول الله ﷺ :

– التمادى.

قـال:

– فأخبرنى، هل ينفع البر بعد الفجور ؟.

قال رسول الله ﷺ :

– نعم، التوبة تغسـل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وإذا ذكر العبد ربه عند الرخاء، أغاثه عند البلاء.

قال العامرى:

– وكيف ذلك يا ابن عبد المطلب ؟.

قال رسول الله ﷺ :

– ذلـك بـأن الله يقول: لا وعزتى وجلالى، لا أجمع لعبـدى أمنين، ولا أجمع له أبدا خوفين، إن هـو خافنـى فى الدنيـا، أمننى يوم أجمـع فيه عبـادى عندى فى حظيرة الفـردوس، فيدوم له أمنه، ولا أمحقـه فيمن أمحق، وإن هـو أمننى فى الدنيا، خافنى يوم أجمع فيه عبـادى لميقات يوم معلوم، فيدوم له خوفه.

قال العامرى:

– يا ابن عبد المطلب، أخبرنى إلام تدعو؟.

قال رسول الله ﷺ :

– أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع الأنداد، وتكفر باللات والعزى وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن، وتصوم شهرا من السنة، وتؤدى زكاة مالك، يطهرك الله بها ويطيب لك مالك، وتحج البيت إذا وجدت له سبيلا، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، وبالجنة والنار.

قال العامرى:

– يا ابن عبد المطلب، إذا فعلت ذلك، فما لى؟.

رتل رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [سورة طه – الآية ٧٦].

قال:

– يا ابن عبد المطلب، هل مع هذا من الدنيا شىء، فإنه يعجبنى الوطاءة من العيش ؟.

قال رسول الله :

– النصر والتمكن فى البلاد.

ولم يتوقف رسول الله ﷺ لحظة، عن رعاية المسلمين وتعليمهم، سواء من كان منهم بالمدينة أم فيما حولها، فكان يذهب كل يوم سبت ماشيا، أو راكبا، إلى مسجد قباء ليصلى فيه، فهو أول مسجد بنى فى الإسلام، ويقول عنه:

– صلاة فى مسجد قباء كعمرة.

وفى مسجد قباء، يلتقى بصحبه ويتذاكرون أمورهم، ويلقى فيهم درسه، ويجيبهم عما يسألون عنه، ويفصل فيما يحتكمون فيه إليه من الأمور، حسب ما شرع الله فى قرآنه المجيد، وحسب ما يدرسه له جبريل عليه السلام.

وكان يحرص على مشاركة أهل المدينة، المسلم منهم وغير المسلم فى سرائهم وضرائهم، فكان يحضر أفراحهم، ويمشى فى جنائزهم، ويحثهم على الاقتداء به، وفعل ما يفعل، فكل عمله خير، وتوحيد للمشاعر فى أوقات الفرح والكرب.

كان يخدم رسول الله ﷺ غلام من يهود، فمرض الغلام مرضا شديدا أقعده، فلما انقطع عن الذهاب إلى بيت رسول الله ﷺ، سأل عنه، فلما علم بالحال التى هو عليها عاده، وقعد عند رأسه، متأثرا لشدة مرضه، وقال له فى عطف بالغ، وهو يشعر بدنو أجل الغلام:

– أسلم.

فراح الغلام ينظر إلى أبيه، وهو لا يدرى ما يقول، فقال له أبوه:

– أطع أبا القاسم.

فأسلم الغلام، وخرج رسول الله ﷺ من عنده وهو مسرور، وقال:

– الحمد لله الذى أنقذه بى من النار.

وكان رسول الله ﷺ يحض المسلمين على التزاور، وعيادة المريض، ويقول:

– ما من رجل يعود مريضا، إلا وخرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف فى الجنة، ومن أتاه مصبحا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسى، وكان له خريف فى الجنة.

– من عاد مريضا، أو زار أخا له فى الله تعالى، ناداه مناد: أن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا.

– من توضأ، فأحسن الوضوء، وعاد أخاه محتسبا، بوعد من النار مسيرة سبعين ألف خريف.

وكان رسول الله ﷺ يعلمهم، أنه من آداب زيارة المريض، تخفيف الجلوس، وقلة الصخب، وأنه يحسن أن يدعو الزائر لمزوره بطول الأجل، قال ﷺ:

– إذا دخلتم على مريض، فنفسوا له فى أجله، فإن ذلك يطيب نفسه.

– من عاد مريضا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات:

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك. إلا عافاه الله تعالى من ذلك المرض.

ويزداد ارتباط المسلمين بالمسجد، وحبا فيه بنى الأنصار والمهاجرون بيوتا لهم فى الأرض المحيطة به، رغبة منهم فى القرب من بيت الله، والتصاقا بالحبيب محمد ﷺ؛ وحتى الأسواق المتناثرة بين أحياء المدينة بدأت تتجمع وتتوحد فى سوق رئيسية بالقرب من المسجد، وأخذت المدينة تتشكل على صورة أخرى غير تلك التى كانت عليها، حين وفد إليها رسول الله ﷺ.

فلقد توسعت الحياة حول الجامع، وأصبحت مبانى المدينة كتلة سكنية واحدة، بعدما كانت وحدات متفرقة، وهو أمر لم يأت عبثا، بعد أن سادت روح الإسلام التى بثها نبى الله ﷺ فى النفوس، لتتغلغل فيها وتتأصل، فتصير سلوكا، ويصبح التواد والتراحم، هو سمة هذا المجتمع الإسلامى الأول، فالمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن هنا زالت مشاعر التربص والقلق والخوف بين القبائل والأفراد، لتحل بدلا منها مشاعر التآخى والتواد، وما كان تقارب المبانى إلا تعبيرا عن توحد المجتمع، وزوال الفرقة بين أفراده، فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

وإذا كان هذا قد حدث بين من دخل الإسلام من أوس وخزرج وهود، فلقد ظل من عموا عن نعمة الإسلام من اليهود، يعيشون فى أحيائهم المتطرفة، والتى تكاد تكون حصونا.

وبهذا توحد المسلمون فى المدينة، وأنشأت وحدتهم مدينة جديدة، تقوم فى ظاهرها على وحدة البناء، وفى أساسها على التقوى.

❑❑❑